فعالية المنهج الأسطوري في دراسة الشعر الجاهلي

الأستاذ: عاشور بارودي

جامعة باتنة

الملخص

يتعلق طرح مسألة " فعالية المنهج الأسطوري" في المقاربات النقدية بجدوى الدراسات الأسطورية للتراث الأدبي العربي القديم، وهي فيما يبدو مسألة تستحق الحديث من أوجه عديدة: كتحديد مفهوم المنهج الأسطوري وتأسيسه في الفكر الغربي، وكذا علاقة المنهج الأسطوري بالشعر العربي القديم ثم إمكانية اتساع المفهوم ونموه بما يتناسب وطموحات التطبيقات النقدية الحالية.

الكلمات المفتاحية: المنهج الأسطوري، الأسطرة، التحويل، الفعالية، الوظيفة.

Résumé:

L’exposition de l’idée de ¨ efficacité de la Méthode mythologie¨ à l’approchement critique se relier d’utilite des études mythologie au patrimoine littéraire arabique ancien, celle-ci qui être digne de parler de quelque façons , comme la détermination de la méthode mythologie, et leur principe fondamentale au pensée occident , ainsi leur pratiques aux études arbres, aussi la relation entre la méthode mythologique et la poésie arabique ancien, en fin l’obligation d’étendue la définition et leur développement selon l’aspiration des pratiques critiques d’aujourd’hui.

Mots clés: Méthode mythologie, Transposition, Efficacité, Fonction.

تمهيد

لعل الداعي الأساسي إلى خوض الحديث في هذا المنهج وجدواه هو ما يتمتع به الشعر العربي الجاهلي من خصوبة دلالية تساعد على قيام آلية منهجية من هذا القبيل بالدراسة والتحليل والاستنباط، وذلك بحكم مناسبة السياقات الاجتماعية والنفسية واللغوية لذلك التراث الذي نراه مجالا حيويا للمحاورة وإنتاج الأفكار وتحقيق أفضل أشكال الانسجام معه خدمة للهدف الحضاري المشترك.

I-في مفهوم المنهج الأسطوري:

ليس مقام الحديث هنا عن التنظير بقدر ما هو وصف لذلك التنظير، ذلك أن محصّلة الكلام تنتهي إلى اعتماد العامل الأسطوري أساسا في قيام المنهج، ويظهر هذا بداية من النسبة الواقعة في التركيب (المنهج الأسطوري)، وهي نسبة وصفية محدّدة، ومن هنا فإن محور المهمة يرتكز على البحث عن خصائص العامل الأسطوري في ثنايا العمل الأدبي، ثم استنتاج التفسيرات الملائمة لذلك.

ولكن إذا تمّ هذا على المستوى الخارجي السّطحي، فإنّه يعد ساذاجة وتبسيطا مكشوفا للغاية إذ لا يعدو حينها أن ينحصر الجهدُ في عملية بحث منفصلة عما يظهر من إشارات خارجية توحي كأنها من متعلّقات العامل الأسطوري، قد لا توفّق في النهاية إلى إنتاج تفسير يضيف قيمة للعمل الأدبي، ولهذا وجب تعميق النظرة والتركيز على إشارات هذا العامل الأسطوري من داخل البناء الفني الأدبي، وسبيله في هذه الحالة هو الدّلالة، فيكون الأمر تباعا دراسة دقيقة للنّص الأدبي بكل مؤشّراته حتى الوصول إلى تحديد العناصر الدّلالية لذلك العامل والذي يجب أن يكون قد خدم النص من لحظة الإبداع الأولى، فيكون بالتالي أساسا من أساساته.

وإذا كان المقصود بالمنهج الأسطوري هو اكتشاف استخدام الشعراء لمنهج الأسطورة في خلق أشعارهم بلجوئهم إلى ذات الشيء الذي يلجأ إليه مبدعو الأساطير من الشعوب القديمة، فإنّ ذلك ما كان ليكتمل لولا ذلك الاستعداد الإنساني الدائم للاستجابة بطريقة أسطورية[1]، وهذا هو الاتجاه الذي نريد أن نوجه إليه اهتمامنا حتى نصل إلى ما يسمى "بالمعادل الأسطوري" الذي يمثّل مجموعة الحلول المعادلة للواقع العاجز لدى الشاعر[2].

فمدار النشاط إذن يعتمد على تحويل المادة الخام، وهي كلّ المعطى الطبيعي الذي يستقبله الإنسان من الحياة عامة، ومن هنا يستوي الناس في مسألة الوظيفة التعبيرية، ومنهم الأديب، الذي هو تلك الشخصية المتعاملة مع الطبيعة بمختلف مظاهرها من منطق الخيال والرّمز، وهذا هو النشاط الذي يمكن أن نسميه منهجا أسطوريا أو بناء أسطوريا[3].

فالأمر إذن لا يتعلق بأسطورة بعينها، بقدر ما يتعلق بعملية نشاط خيالي يستثمر في الرّموز ويحوّلها بشكل بنائي إلى مركب ذي روح أسطورية، وهو ما يقرّه الناقد يوسف حلاوي بقوله: " وأحيانا لا يكون هناك أسطورة بعينها البتة ويكتفي الشاعر بالبناء الأسطوري"[4] .

وفي خضم هذا المنهج تتحول الألفاظ أدبيا إلى رموز، أي لكل لفظة معناها الأصلي ومعناها الإيحائي، وهذا الأخير هو الأساس الذي يؤدّي بنا إلى ما وراء النص"[5]. ولعل الناقد الغربي "كلود ليفي شتراوس" يدلّل على أجلّ ما في

---

(1)- غزوان، احمد علي الحارة، في المنهج الأسطوري، ص03، اليمامة، حمص، سوريا، ط1، 2006م

(2)- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص68، دار الحداثة بيروت، لبنان، ط1، 1992م.

(3)- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص: 68.

(4)- نفسه ص63.

(5)- المرجع السابق، ص22.

هذا المنهج عندما يشير إلى أن مضمون الأسطورة ليس هو المهم بل السياق الواردة فيه والعلاقات المنطقية التي تربط وحداتها"[6]، وههنا إشارة إلى أمرين أساسين هما السّياق والعلاقات، فالسياق بملابساته وظروفه ومحمولاته الخلفية والآنية يمثّل الأرضية التي تتأسّس عليها تلك الصناعة الأسطورية، أما العلاقات فهي الدعائم السّندية التي تقوم عليها في بناء محكم يعطي لها الشكل والوظيفة.

ويستمد هذا المنهج قوته الإجرائية من مجالين أساسيين هما علم النفس التحليلي والأنثروبولوجيا (دراسة الشعوب القديمة والأعراق)، وبقدر ما يقدمه من ممارسة نقدية فهو يحاول استيعاب الظاهرة الأدبية في مدى تصوره، ولهذا فهو يحدد مجال تعريفها ليتمكّن من تحليلها وفق مرجعياته، وفي هذا المجال يتعلق الأمر أولا بما يُدعى الأنماط الأولى أو الأولية، وهي تلك الآليات الإنتاجية والمبتكرة والمحافظة على الجنس البشري، ومنها الأحلام والسحر والعلم والدين والأدب، وهي بدءا تنطلق من الفرد الأول لكنها تتحوّل إلى مجموع بسبب التكرار الذي ينشأ من بعد ويستمر مع الجنس البشري، وعلاقته التّماثُلية في الوظيفة، فالعِلم مثلا ما هو إلاّ انتقال للأسطورة من الواقع النفسي إلى الواقع المادّي[7]، وهو مثلها تماما يحب الهيمنة وتحقيق الرغائب والتطلّعات كالأدب- أيضا- تماما، فالذي يتغير بالأساس هو الوسيلة الخارجية والمظهر فحسب، أما الوظيفة فهي هي في كل العناصر الفاعلة.

والظاهرة الأدبية لا تكاد تخرج عن هذا المجال، وما هي في حقيقة الأمر إلا تعبير عن نموذج أولي يتكرّر مهما مرّ من وقت وإنّ المتغير فيها هو مقتضياتها الظرفية فحسب، ولعل المعادلة في هذا المعنى أن تكون جلية واضحة

[6]- حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري، ص: 50، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999م.
[7]- حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري، ص: 50.

ثابتها هو الإنســـان وجوهره، وطرفها الثاني هو إنتاجيته (الأنماط الأولى)، فالطرف الثاني يكتسب ثباته في الوظيفة من ثبات جوهر المنتج وهو الإنسان، وبهذا يصبح الجهد في الأدب منصبًّا على تطوير وإحداث ابتكار للنموذج الأوليّ وتعميقه تعبيريا.

ولعل هذا الأمر هو الذي حمل إبراهيم عبد الرحمن على القول في شـــأن صور الشعر الجاهلي أنّنا أمام تكرارات لصور ومعان تعيننا في توثيق الشعر الجاهلي توثيقا يحمل التفسير الأسطوري، ويفتح مغاليق صور الشّاعر الجاهلي لدرجة أكسبت هذه الصور قداسة دينية غريبة حملت مثيولوجيا وثنية جاهلية في مواجهة معارف دينية عندهم[8] .

II- وشائجية الأسطورة و الأدب:

إنّ التلاحم الذي ينشـــأ بين الأســـطورة و الأدب أكبر داع لقيام المنهج الأســـطوري بمرافقة تفســـيرية للظاهرة الأدبية، إذ أن هناك اعتقاد راســـخ بأن الأسطورة قويّة الارتباط بالأدب لدرجة أنّ مصير أحدهما متعلّق بالآخر[9]، وهو نفس القرار الذي ينتهي إليه "فريديرك شليجل " بأنّ الأسطورة و الشعر هما شيء واحد لا انفاصـــل بينهما[10]، ونلاحظ هنا بلوغ التلاحم درجة التوحّد الناتج عن التطابق الكامل، ومع أن فيه خطورة إلغاء أحدهما للآخر إلا أنّه يدل على قوة التآلف بينهما.

وأما "مارك شـــورر" فإنه يتكلم عن ثنائية الأســـطورة و الشـــعر من قبيل المعادلة المبنية على اللزومية والكفئية، وهي أن الأسطورة هي الأساس الذي لا

---

(8)- عماد علي الخطيب، الصورة الفنية أسطوريا، ص27، درا جهينة، عمان، الأردن، ط2، 1426ه، 2006م.
(9)- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص47.
(10)- نفسه، ص47.

يمكن للشـعر الاسـتغناء عنه"[11]، في الوقت الذي يعتبر " ريتشـارد تشـيز" أن العكس هو القائم ويعني أن الشـعر هو الأسـاس الذي لا يمكن للأسـطورة أن تستغني عنه[12]. وأيًّا كان الأمر فالقضية تحيل على العلاقة التلازمية الوجودية بين المكونَّين.

وإذا كانت الملحمة والقصّة والمأساة من الأنواع الأدبية فإن "مالينوفسكي" يعيد سـبب الوجود التكويني للأدب إلى الأسـطورة باعتبار أن الأسـطورة تحتوي على الجنين المستقبلي للملحمة والقصة والمأساة، وهو نفس التصور الذي وضعه "جون ب فيكري" بقوله: "إن الأسـطورة هي الرّحم الذي يخرج منه الأدب تاريخيا وسـيكولوجيا"[13]، وهذه العلاقة تتجاوز الأسـاس التلازمي المتكافئ إلى أسـاس تكويني نشوئي.

ويشـير يوسـف حلاوي إلى السّـبب الرئيسـي الذي يسـوغ قيام الرّابط بين الأسطورة والأدب وهو الاستعارة على الرغم من اختلافهما من حيث التكوين[14]، وهي إشـارة إلى آلية العمل التي تسـتهدف التحويل والاختراق اتّفاقا مع الوظيفة المشتركة.

ويعمق "أحمد كمال زكي "هذه العلاقة تاريخيا بقوله: "عندما نتقدم لدراسـة الأساطير لا نجد إلا النصوص الأدبية"[15]، وهو يقصد بذلك أنها الشاهد الأقوى، إضافة إلى أن "المعتقدات الأسطورية كانت المضمون الوحيد لأقدم صور التأليف الشعري في الصين (...) [فلا غرابة إذن] أن تلعب الآثار الأدبية دورا خطيرا في

(11)- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص47.
(12)- نفسه، ص47.
(13)- نفسه، ص47.
(14)- نفسه، ص47.
(15)- أحمد كمال زكي، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ص194، دارة العودة بيروت، لبنان، ط2، 1979.

نقل الأساطير والحكايات الخرافية عبر التاريخ، ويكون للشعر الغنائي فضل السّبق"[16]، فإذا أُضيفَ هذا الشاهد التاريخي إلى شراكة العنصرين في الترميز والاستعارة ووظيفة التحويل والاختراق اكتمل الدليل على قوة الترابط بينهما وصعوبة فصلهما، ومن ثم وجوب الأخذ بأحدهما لفهم الآخر ولو نسبيا مع مراعاة المحاذير.

III- الأساس الفكري للمنهج في الغرب:

يعدّ الناقد "نورثروب فراي" من أبرز المفكرين الذين نادوا بقيام هذا المنهج في الدراسات الأدبية، ومنطلقه في هذا الأساس هو فكرة النماذج الأصلية أو "الأنماط العليا"، إذ يسقط صورة الأدب على أرضيته الحقيقية وهي الأسطورة، فيعتبر من وجهة نظره أن الأدب هو أسطورة قد أزيحت من مكانها، وأفضل طريقة لفهمه هو إرجاعه إلى نصه الأسطوري الصحيح[17] .

ويترتب على فكرة الأنماط العليا أن يدرس الناقدُ القصيدةَ باعتبارها جزءا من الشعر، والشعر باعتباره جزءا من محاكاة الإنسان للطبيعة[18]، فيبقى مبدأ المحاكاة الذي هو فعل من صميم العنصر الأسطوري أساسا لإنتاج الأدب، ولذلك يرى أيضا أن الأساطير هي عنصر بنائي في الأدب لأن هذا الأخير حل محل الأساطير، فلا بد للناقد الذي يبتغي تفهم الأدب من أن يبحث عن ذلك الإطار الأسطوري العام"[19]. فالعلاقة إذن وظيفية مزدوجة يحكمها الانزياح وتبدّل الأدوار، والسبب في هذا التواشج هو الطبيعة المشتركة بين الأسطورة والأدب، مما يقتضي إرجاعها إلى النموذج التكويني الأول وهو "الميثة" أو القصة

---

(16)- نفسه، ص: 200، 201.
(17)- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص: 45.
(18)- نفسه، ص: 54 .
(19)- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص59.

التي انحدرت من الجماعة لا الفرد، وهو ذات الشـــأن في الأدب قبل كتابته[20]. قد كانت الطقوس الفصلية أساس نشوء الأدب، وهما(الأدب والطقوس) تعبيران عمليان عن التصـور البشـري، أي عن الميثات التي خلقها البشـر عن الطبيعة والكون[21].

وهذا يؤكد مرة أخرى فكرة المحاكاة وتفاعل الإنســان مع الطبيعة في إنتاج الميثة التي تحمل التصـورات الأولى للعناصـر الفاعلة والمسـمّاة بالأنماط الأولى أو الأنماط العليا والتي من أهم خصائصها[22]:

- التقلّب والتحوّل والتشظّي.
- الوظائفية المتعلقة بالمهام والأهداف.
- خضوعها لكثير من التعديلات والانزياحات.
- وحدة اللغة في الأدب.

وإضـــافة إلى ما قام به "فراي" في كتابه "تشـــريح النقد" من بســـط لنظرية الأنماط الأولية المتولّدة من الميثات أو القصـة التي أنتجها الإنسـان من الطقوس الفصـلية خصـوصـا، قدّم الدّارس النّفسـاني " كارل غوسـتاف يونغ" جهودا معتبرة في التأسيس لهذا التوجه من النقد الأسطوري عبر ما سماه " اللّاوعي الجماعي" الـذي يختزن في ثنـايـاه مســـــألـة النمـاذج العليـا وهي منطقـة تقع خلف الوعي الشخصي وتفوقُه اتّساعا، وقد مثّله حنّا عبّود بهذا الرسم[23]:

---

[20]- حنا عبود النظرية، الأدبية الحديثة، النقد الأسطوري، ص72.
[21]- نفسه، ص73.
[22]- نفسه، ص51، 52، 56، 58.
[23]- نفسه، ص19.

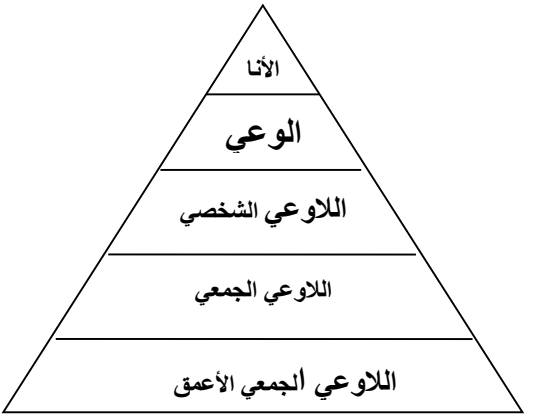

فهو إذن حكمة الجنس البشـري الموروثة غير الواعية، تفسّـر التّشـابُهات العجيبة بين موضـوعات الأسـطورة وأنسـاقها في كثير من الثقافات المختلفة، كما تفســر وجود الرموز الأســطورية القديمة المتكررة في الأحلام، و المولّدة للرموز باسـتمرار، هذه الرموز المسـماة عنده بالنماذج العليا للصـور البدائية التي تعود فتولد عند كل فرد، وتظهر هذه الصورة عند مواجهة ظروف معينة في حياة الفرد تقربه من أحد مظاهر هذه التجربة الجماعية الشاملة[24] وعلى هذا الأساس يقسم يونغ الإبداع إلى[25]:

– سيكولوجي يستمد من عالم الشعور.

– وكشـفي يسـتمد من أغوار النفس الإنسـانية والتي لها التفوق والسـلطان والشذوذ والتشعب .

[24]- سلمى خضراء الجيوسي، الاتجاهات في الشعر العربي الحديث، ص796، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001م.
[25]- محمد عبد الفتاح أحمد، المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ص19، دار المناهل بيروت، ط1، 1408، 1987م.

ويعتبر أن الظاهرة الأدبية ما هي إلا حركة نفسية تتم في طبقة اللاوعي معبرة عن نمط أولي كلي متخذ في شكل رمزي هو النص الأدبي، وقوله هذا لا يرد منفصلا عن الأدب ولكنه في إطار عام من الشمولية والوحدة والاستمرارية[26].

وينكشف لنا بسهولة مدى تآلف مفهوم فكرتي "الأنماط الأولى واللاوعي الجمعي"، وكلاهما تؤديان إلى التعبير عن وحدة الذات الإنسانية أو الدلالة عن ثبات جوهرها، وتتظافر كلا النظريتين السابقتين مع عدد من الدراسات في ذات السياق كتلك التي قام بها كل من "جميس فريزر" و"بود موركين" و"غراهام كولبير"[27] وغيرهم.

IV- تطبيقات المنهج الأسطوري في الدراسات العربية:

لقد لقي هذا التوجه النقدي استقبالا متأخرا في الدراسات العربية، يرجع الى أواخر السبعينات من القرن العشرين، رغم ظهور بعض المحاولات المتقدمة كمحاولة أسعد رزوق في كتابه " الأسطورة في الشعر المعاصر" الصادر سنة 1959، إلا أنها كانت في الأصل صدى لقصيدة "إليوت" المشهورة "الأرض اليباب"، وأما المحاولة الثانية فقد ظهرت على يد "خليل أحمد خليل" في كتابه "مضمون الأسطورة في الفكر العربي"، وكانت في الأساس معالجة تشخيصية نقدية لتوجه الفكر العربي واستسلامه للنزوع الأسطوري، مما تسبب في تخلف الأمة حسب نظره[28]، إلا أنها فكرة ضعيفة في رأي "حنا عبود"، لأن أعظم حضارة مدنية في تاريخ البشرية – وهي اليونانية في أثينا– قد قامت في أمة

(26)- حنا عبود النظرية الأدبية الحديثة و النقد الأسطوري، ص19.
(27)- نفسه، ص07، 20.
(28)- خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، ص190 وما بعدها، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1986م.

يسودها الفكر الأسطوري[29]، ولم تزل الأنظمة الديمقراطية إلى اليوم عالة على ديمقراطية أثينا.

أما الدراسات التي لامست صلب الموضوع فمنها:

– كتاب "أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث" لريتا عوض الذي صدر سنة 1978 وعالجت فيه جانب الموت و الانبعاث في الشعر العربي، نافذة إلى إحدى أهم صور الأنماط الأولية: أب، أم، ابن[30].

– كتاب "الرؤيا في شعر البياتي" لمحي الدين صبحي سنة 1986، وفيه عالج مسألة هامة من النقد الأسطوري وهي القناع، والتي يسميها يونغ "البرسونا" person في تمثلها دور التعبير عن حلم الجماعة، فرفع هذا النموذج إلى أعلى درجاته تحت أقنعة: الحلاج والمعري والخيام ولوركا وغيفارا وأبي فراس، حتى تماهت الأبطال والعصور لتشكل رؤيا موحدة عن الحضارة العربية الإسلامية، وتعد ميزة هذه الدراسة في اشتمالها على مؤشر قيام نظرية عربية في الأدب، باعتباره نظاما عالميا منذ البدايات[31].

– كتاب "الأداء الأسطوري في الشعر العربي المعاصر" لعلي البطل سنة 1992، وهنا تتقدم الدراسة أكثر وتتعمق وتبلغ درجة من الشمولية، حيث عالجت مسألة الانتقال الشعري من استعمال الرموز الأسطورية إلى التعامل مع منطق الأسطورة وصياغة لغتها (الأسطرة)، ويؤكد الباحث على ملمح دقيق هو التفريق بين لغة الطقس ولغة الحياة اليومية، إذ الشعر يستخدم الإثنين ويكون الحاصل إبداعا فنيا، وبخاصة إذا تحكم في توظيف اللغة اليومية بما يوحي بمكنون الصورة الشعرية، أو الصورة الشعرية التي تستعمل لغة الطقس، وهنا يكون

(29)- حنا عبود النظرية الأدبية الحديثة و النقد الأسطوري، ص09، 10.
(30)- نفسه، ص10.
(31)- نفسه ص11.

الشاعر قد قام بالتعديل المناسب ووافق بين الأسطرة والواقع اليومي الذي يضطر الشعر إلى التجديد[32].

ثم توالت الدراسات بعد ذلك وهي عديدة ركزت جهدها خصوصا على الشعر العربي القديم، ومنها تلك المتعلقة بالاتجاه الأسطوري الديني كدراسة نصرت عبد الرحمن "الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث"، حيث اعتبر أن وراء تلك الصور الأدبية حياة ميثيولوجية كاملة[33].

ودراسة علي البطل " الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري"، حيث يثبت و جود صور نمطية ترتبط بالمتوارث العقلي الإنساني من الشعائر والأساطير[34]. ودراسة مصطفى عبد الشافي الشورى "الشعر الجاهلي تفسير أسطوري"، حيث اعتبر فعل الشاعر الجاهلي مع رموزه (الفرس، الناقة...) يشبه فعل المتعبد إلى صنمه[35]. و دراسة أحمد إسماعيل النعيمي "الأسطورة في الشعر العربي قبل الاسلام"، التي خلص فيها إلى أن التقديس والتأليه الذي طال بعض الحيوانات هو امتداد لحضارة سابقة في الدين والأسطورة جسدها الشاعر في صوره الشعرية[36] .

أما الدراسات التي اتجهت إلى ناحية الصورة الفنية في تشكيل الأسطورة فمنها:

---

(32)- حنا عبود، ص11.
(33)- عماد علي الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا، ص60، جهينة، عمان الأردن، 1426، 2006م
(34)- نفسه ص63.
(35)- مصطفى عبد الشافي في الشورى، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص87، مكتبة لبنان، لونجمان مصر،، ط1، 1996.
(36)- أحمد اسماعيل النعيمي، الأسطورة في الشعر العربي قبل الاسلام، ص180، سينا القاهرة، ط1، 1995.

– دراســـة إبراهيم عبد الرحمن محمد "الشـــعر الجاهلي قضـــاياه الفنية والموضــوعية" حيث يرى أن تحليل الصــورة الشــعرية أســطوريا يكمن في تلك العناصر المتنافرة التي يأخذها الشاعر من ظواهر البيئة حوله[37] .

– ودراسة مصطفى ناصف "قراءة ثانية لشعرنا القديم "، الذي يحلل صوره وفق سلطان "اللاشعور الجمعي"[38] الذي يمثل منبع أحلام المجتمع، وسبيل ذلك هو التكرار المتناقل بين الشعراء، وبهذا تعد الصورة رمز التعبير الأسطوري.

– ودراسة عبد القادر الرباعي "الصورة الفنية في النقد الشعري" الذي يرى أن الصورة الفنية أفضل مظهر تعبيري عن العمق الأسطوري للتفكير الجاهلي، الذي يربط في الرؤية بين الكون والحياة والإنسان[39].

– ودراسة ريتا عوض " بنية القصيدة الجاهلية "، التي رأت فيها أن البنى الصورية موجودة في اللاوعي الجمعي، وابتكرت اسم الصورة العنقودية للدلالة على الانتفاح والتوليد[40] .

ثم توالت الدراسات النقدية للشعر الجاهلي – والحديث أيضا– ذات المنهج الأســـطوري باســـتمرار إلى أيامنا هذه، مما يدل على نفاذية هذا المنهج وجدواه النســبية في تحقيق بعض النتائج الإيجابية وفتحه لآفاق جديدة في فهم الصــورة والمعنى.

V- جاذبية الشعر الجاهلي:

يعتبر نص الشــعر الجاهلي فضــاء ثريا يســتقطب بجاذبية كبيرة تطبيقات المنهج الأسطوري، وهذا يرجع أساسا إلى طبيعة ذلك النص وخصائصه المميزة:

---

(37)- ابراهيم عبد الرحمن محمد، الشعر الجاهلي قضايا ه الفنية و الموضوعية، ص210، ناشرون، لو نجمان، مصر، ط1، 2000م.

(38)- مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص45 وما بعدها، دار الأندلس، بيروت، 1978م.

(39)- عماد علي الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا، ص76.

(40)- نفسه، ص79.

من لغة وصـورة فنية، ووحدة شـعرية، وتكرار في التجربة، وتعال في التصـوير، وخلفية بيئية (فكرية واجتماعية وطبيعية).

وقد أســـهمت هذه العناصـــر كلها في خلق مناخ خصـــب لظهور منهج أسطوري يعنى بدراسة الخطاب الشعري وفق أنظمته النفسية واللاشعورية العميقة في إطار من الرمزية الأدبية.

ويرى محمد عبد الفتاح أحمد أن بروز النقد الأسطوري في تفسير شعر ما قبل الإسـلام وتحليل صـوره يرجع إلى أسـباب عديدة[41]: منها ما يتعلق بالمنهج وأدواته وتقنياته، ومنها ما يتعلق بشـعر ما قبل الإسـلام، و منها ما يتعلق بالبيئة العربية، ويهمنا في هذا المقام ما يتعلق بشعر ما قبل الإسلام بسبب وروده على نمط له خصـــائصـــه الثابتة المتكررة، حيث يســـتحيل افتراض التقليد أو العجز الفني، باعتبار أن ذلك الشعر ظاهرة جماعية معقدة أصيلة مسيطرة على الشعراء كالعقيدة الراسخة.

ويرى إبراهيم عبد الرحمن محمد أن فهم الشـــعر الجاهلي خاصـــة والقديم عامة، لا يتأتى لدارسـه إلا بفهم هذا الأسلوب التصـويري، وتحليل صـوره المركزة تحليلا يكشـــف أولا عن أصـــولها الميثولوجية التي نبعت منها، ويبرز ثانيا تلك العلاقات الخفية التي كان يقيمها الشاعر الجاهلي بين عناصر الصورة ومكوناتها المختلفة، وبين مواقفه أو قل "فلســـفته" في الحياة وظواهرها المتناقضـــة في بيئته"[42].

(41)- محمد عبد الفتاح أحمد، المنهج الأسطوري في تفسير الشعري الجاهلي، ص222، 223.
(42)- ابراهيم عبد الرحمن محمد، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية و الموضوعية، ص175.

وبسبب التكرار النمطي فهو يعتقد أن الصورة جاءت مركزه وغامضة وغلب عليها التعبير الرمزي بعيدا عن المباشرة، و أصبح الشعر خلال الصورة بناء لغويا مجازيا حافلا بالرموز والمعاني"[43].

أما مصطفى ناصف فيري أن لغة الشعر الجاهلي قد وحدت مستوى التفكير، بالاشتراك في أنظمة فكرية وشعورية ألحت على عمق فكرتي: المصير ومأساة الانسان[44]، وبهذا يتضح مقدرا الإغراء الذي يبعث به النص الشعري الجاهلي نحو المتأمل فيه، ليجد نفسه يخوض تجربة التحليل والفهم والاستنباط وفق منهج أسطوري فني.

VI- حيوية المنهج:

إن القواعد الأساسية التي قام عليها المنهج الأسطوري لا تعني بعث الجمود في إجراءاته التطبيقية، بل إن آلياته تدفع به نحو التجدد وابتكار طرق جديدة في كل حين للحفاظ على الغاية التي يهدف إليها وهي اكتشاف البنى العامة لنظام الظاهرة الأدبية، وإن خصوصية هذه الأخيرة هي التي تتيح استمرارية هذا المنهج وحياته بصفة كبيرة، وذلك بما يتضمنه من أساليب فنية في الرمز والاستعارة والتورية والكناية...وغيرها.

كما يتضح أيضا مقدار الملاءمة بين المنهج الأسطوري والظاهرة الأدبية في الآلية العملية، إذ كلاهما يعمل على توظيف الرمز بل وخلق الرمز الفني الخاص، لأن الأدب يعتمد على الصورة، وهذه الأخيرة تشترك مع الأسطورة في اللغة الرمزية[45]، كما يعتمد الإثنان على محور الخيال لبناء الفضاءات والعمل على تحويل العناصر واختزال العوالم وتوزيع الوظائف بحسب ما يناسب السياق

(43)- نفسه، ص172، 173.
(44)- مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص46.
(45)- عماد علي الخطيب، الصورة الفنية أسطوريا، ص50.

الإبداعي، الذي يعتمد على القناع باعتباره استعارة موسعة تشتمل على صوت الشاعر وصوت الشخصية الأسطورية التي تعبر عن تجربة إنسانية شاملة[46]، فلا غرابة أن يتحول المنهج الأسطوري في عالم الأدب إلى معنى "الأسطرة " أي خلق عالم أسطوري بوسائل أدبية، ويتحول الهدف من البحث عن نماذج أولية جاهزة إلى البحث عن أنظمة إبداعية كامنة في الظاهرة الأدبية، التي تعد قديمة قدم الإنسان، وهكذا تبقى الوظيفة هي التي تمنح دورا جديدا للمنهج الأسطوري في عالم الأدب.

وهذا هو المعنى الذي يؤكد عليه "حنا عبود " باستمرار على اعتبار عراقة التقليد الأدبي ووحدة وظائف الفنون الأدبية لدى كل الشعوب[47]، وأن المتغير هو التعديلات والانزياحات الظاهرة مع كل ظرف جديد، بل يصرح أن الجديد في هذا المنهج هو الإجادة في التعديل الذي يزيح العمل الأدبي عن الأسطورة النموذجية وفقا للضرورات القائمة[48]، والمراد هو ظهور بدائل جديدة تؤدي وظائف النماذج الثابتة لأن الخاصية المتحركة في هذه النماذج الثابتة هي توالدها وتشظيها، وهذا الفعل يتناسب أفضل ما يتناسب في عالم الأدب.

وهو ذات المعنى الذي يتبناه صلاح فضل بخصوص الأساطير الجديدة التي نصنعها، على أن أجمل ما فيها هو أكلها بعد صنعها، بسبب أن القيم الثابتة تدمر حيوية الشعوب، ولذلك فنقد الرموز وتفريغها من المعنى خطوة ضرورية لإعادة شحنها بمعنى جديد يتناسب مع كل مرحلة[49].

(46)- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، ص62، 65.
(47)- حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة و النقد الأسطوري، ص61.
(48)- نفسه، ص108.
(49)- صلاح فضل، صور القراءة وأشكال التخيل، ص32، دار الكتاب، القاهرة، بيروت، ط1، 1428، 2007.

وعلى الرغم من المخاطر التي تحدق بهذا المنهج كالانطباعية وقلة التوثيق والجاهزية أو التعسفية[50]، إلا أنه يعد في نظر بعض النقاد أكثر المناهج جدية في محاولة الكشف عن الحياة الكامنة في النص على أساس من فهم صحيح لطبيعة هذا الفن ووظيفته في حياة الإنسان، بعيدا عن الاكتفاء بالأثر اللغوي بنيويا، أو السطحية باعتبار مرحلة الجاهلية ساذجة خالية من الأفكار، أو الإسقاطات النفسية المستعجلة، وإنما على أساس من فهم لطبيعة الفن القديم المثيودينية، وإدراك سليم لوظيفته في حياة الإنسان تعبيرا ورمزا وبقاء[51].

كما يمكن أن نتجنب تلك النقائص والصعوبات بالعودة إلى أحضان النص رفقة الأسطورية المنحازة إلى ذاتية الشاعر من خلال ما يشكله من صور بلغة رامزة توصله إلى المثالية المنشودة[52].

(50)- محمد عبد الفتاح أحمد، المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ص224، 229.
(51)- محمد عبد الفتاح أحمد، المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ص252.
(52)- عماد علي الخطيب، الصورة الفنية أسطوريا، ص54، 56.

قائمة المصادر و المراجع:

1-إبراهيم عبد الرحمان محمد، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، لونجمان، مصر، 2000، ط1.

2-أحمد إسماعيل النعيمي، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، سينا، القاهرة، مصر، 1995، ط1.

3-أحمد كمال زكي، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، بيروت، لبنان، 1979، ط2.

4-حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999، دط.

5-خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1986، ط3.

6-سلمى خضراء الجيوسي، الاتجاهات في الشعر العربي الحديث، تر: عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2001، ط1.

7-صلاح فضل، صور القراءة وأشكال التخيل، دار الكتاب، القاهرة، بيروت، 2007، ط1.

8-عماد علي الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا، جهينة، عمان، الأردن، 2006، دط.

9-عماد علي الخطيب، الصورة الفنية أسطوريا، جهينة، عمان، الأردن، 2006، ط2.

10- غزوان أحمد علي الحارة، في المنهج الأسطوري رؤية جديدة في الحداثة بين فعل الشعر وفعل التلقي، دار اليمامة، حمص، سوريا، 2006، ط2.

11- مصطفى عبد الشافي الشورى، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، مكتبة ناشرون لبنان، لونجمان مصر، 1996، ط1.

12- مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، بيروت، 1978، دط.

13- محمد عبد الفتاح أحمد، المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، دار المناهل، بيروت، 1987، ط1.

14- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1992، ط1.